

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

أما بعد... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

بارك الله في صاحب هذا المنزل وجزاه الله خيرا أن جمعكم فيه، أسأل الله تعالى أن يكون هذا المجلس مما يعود علينا بالنفع والصلاح في ديننا ودينانا.

وأخوكم فيكم من هو أولى بأن يتكلم قبله، هذا الذي اعتقده الله، فأنتم تتوفرون فيكم كونكم شبابا وكونكم بصدد طلب العلم، فأنتم أولى أن تتكلموا وأخوكم هذا أولى أن ينصت؛ ولكن لا بد مما ليس منه بد، فبارك الله فيكم.

كان أمس أو قبل أمس أحد إخوانكم قد ذكر لي أنكم أو بعضكم عقد مجلسا شهرتيا، هذا من خير ما علمت به من صنعكم في هذه المدينة المباركة مدينة النبي ﷺ، وكان قد ذكر لي شيئا وهو رغبته في أن يجري ذلك المجلس وأن يكون مضمونه شرح (نظم ابن أبي كف في أصول مذهب مالك) فجالت في ذهني أمور لها صلة بهذا الفن، وربما استثقل الناس أن تُتدارس مثل هذه الفنون اليوم، ولا سيما في مجالس عامة كهذا الذي تعقدونه.

ومما دار في خلدني وجرى في نفسي أن هذا العلم إنما وفق إليه المسلمون؛ وفقهم الله تبارك وتعالى إليه فدَوَّنوه وكتبوه وكتبوا حوله كتبًا تعد بالمشات إن لم يكن الأمر أكثر من ذلك، إنما كان ذلك لصيانة طرق استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية، فهو بمثابة السِّيَاح والحصن للمشتغل بأدلة الشرع حتى لا يندفك فكره ولا يخبو به فرسه فيها، ويخرج عما ينبغي أن لا يخرج عنه في الاستنباط؛ لأن الذي يدور بذهن المرء كثير، ربما فهم المرء من النص غير ما ينبغي أن يفهم، فما الذي يعصمه من ذلك؟ هذا العلم وفق الله تعالى هذه الأمة له لهذا المعنى.

وكان ينبغي للمشتغل بهذا العلم وهذا الفن كما أنه يصونه في استنباطه عن أن

يخرج عما لا ينبغي أن يفهم من النص؛ كان ينبغي أن يؤدي به إلى التحفظ في كلامه، وإلى وزنه بميزان الحق وبمعيار العدل؛ حتى لا يقول ما لا ينبغي، لا سيما إذا عَرَفَ المرء هذه المباحث الواسعة المستفيضة في هذا الفن من المنطوق والمفهوم بأنواعه، والقِيُود التي وضعها العلماء للأخذ بالمفهوم، ومختلف دلالات الألفاظ على المعاني -الدلالات التي تعرفونها؛ سواء التي قال بها المناطق من دلالة المطابقة واللزوم والتضمن، أو الدلالات الأصولية من دلالات الإشارة والتنبية ونحوها-، فهذا الفن عاصم بإذن الله تبارك وتعالى للمشتغل به إن أقامه في حياته، وفي ميدانه العلمي عاصمٌ به إلى أبعد الحدود، فما بالك إذا صحبه الورع والخوف من الله تعالى أن يتقول على الله ما ليس في دينه وشرعه وأن يتقول على رسوله ﷺ؛ لكن مع الأسف الشديد -ولا أريد أن أطيل في هذه النقطة- فإن كثيرا من الناس وإن قرؤوا هذا العلم وبرعوا فيه وكتبوا فيه إلا أنهم إذا تكلموا في الكثير من الأحيان لا يُراعون هذا الذي ينبغي أن يراعوه حتى لا يفهم من كلامهم ما لا ينبغي أن يفهم، ولا يتأتى ذلك إلا إذا قلَّ كلام المرء، ولذلك سلفكم كان كلامهم قليلا، وحيث قلَّ الكلام فإن المخاطر المترتبة عليه تقلُّ من ثم.

الذي أريد أن أقوله هو أن العلم بالشرع وبأحكام الله وهذا الفن جاء ليصونها عما أشرت إليه، العلم بأحكام الله تبارك وتعالى ينبغي أن يكون هو القاعدة لكل مشتغل بالشرع قاصا كان أو واعظا أو مؤرخا أو مشتغلا بأي علم له صلة بالشرع إن لم يكن على يَبْتَنِي من هذا الذي يصون كلامه عن أن يخرج عن حدِّه فإنه قلَّ أن ينفع، وكثيرا ما يضر، ولذلك كان العلم بأحكام الله تبارك وتعالى هو الأساس، ومن ثم تظهر للمرء أهمية هذا الفن.

الناس أذكر لكم شيئا كنت أنفر منه وأتجافاه وعمري عشرون سنة له صلة بما أسلفته، وهو أنني كنت أنصت إلى بعض الخطب الحماسية وعمري عشرون عاما، فكان طبعي ينفر منها، كنت أنفر منها طبعيا لا تطبعيا، الآن بعد أن اكتسبت قليلا -وأنا أعني ما أقول- من معرفة الشرع صرت أنفر منها طبعيا وتطبعيا كنت أستمع في سنة ١٩٦٨ كان عمري عشرين سنة كنت أنفر من بعض الخطب التي كانت يومئذ تأتي إلى وهران وتحمل أرقاما يقال: الشريط رقم ٤٠٠ وصل، فيأتيني بها بعض الناس من العوام، يقول: فلان قد جاء الشريط أنصت إليه، كنت أتعب، ولا أريد أن أسمى الأشرطة التي كانت تأتي للجزائر يومئذ.

وأذكر لكم أيضا أنه في خطب الجمعة رسخ في ذهني بعض الخطب القصيرة، الكلام القليل الذي كنت أستمع إليه في هذه السنة ٦٨، لا أذكر المواضيع التي

يتحدث عنها الخطباء؛ ولكن الذي بقي وقع في ذهني تلك الخطب القصيرة المعصرة المعنى بألفاظها..

أقول لكم: حتى الآن أنفر من بعض الخطباء الذين يُكثرون من المترادفات، ويجعلون همهم أن يعبروا عن المعنى الواحد بعشرة ألفاظ، وأن يتجوزوا في وصف النبي ﷺ مثلا؛ وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وعظيمنا وقائدنا هذا مما يتعني أن أسمع، وقد استمعت إليه اليوم في درس، بطبيعة الحال هذا ليس قاعدة يستدل بها على أن قائلها ليس من أهل الحق وليس من أهل العلم؛ لكن هذا أغلبي عندي.

المهم أن كل ما يتعلق بالشرع إذا لم يؤسس على الأحكام الشرعية التي يخدم ويُعدُّ قواعدها علم أصول الفقه فإن تلك الأعمال لا تنفع.

وأضرب لكم مثلا في الذي نحن فيه اليوم، تجدون العلماء الربانيين كلامهم قليل، كلمات قلائل موزونة، معصرة معانيها واضحة، وانتهى، وكثيرا -ولا أقول دائما- ما تجدون الخطباء المفوهين الذين تفتن بهم الأمة كثيرا ما يكونون يوردونها مورد الهلاك ويقودونها إلى ساحات الفتن، هذا وأحسب -والله أعلم- أن بعضكم يستحضر هذا ويعرفه لماذا.

هؤلاء لا يصح أن نقول: إنه ليس عندهم علم، هذا مستبعد، ولكن والله أعلم هذا ينبىء أن تلك المعارف الشرعية التي نالوا منها حظا وافرا لم تخالط قلوبهم، لم تكسبهم تلك الهيبة لأحكام الله بحيث يتخرجون عند ذكر أحكام الله تبارك وتعالى فلا يقولون على الله ما لا ينبغي، وإنما تستفزهم المواقف، وتستخفهم الجماهير؛ فيخرجون عن طورهم ويقولون ما لا ينبغي أن يقال، والأحداث التي عرفها العالم الإسلامي والعربي منه بالخصوص، والذين كانوا وإن لم يكونوا وقود هذه الفتن، فهم ليسوا وقودا ولا تنمى لهم أن يكونوا وقودا فيحترقوا، ولكن الذين أوقدوها في الغالب كانوا من هؤلاء، الناس من لا يعرف أحكام الله تبارك وتعالى هذا يتورط في الباطل، ومنهم من يعرفها ولكنه عرفها معرفة قالية وليست معرفة حالية وليست معرفة قلبية، ولعله ليس في نفسه من التوقير لأحكام الله تبارك وتعالى ما ينبغي.

ولهذا هذا كله يجعلنا نقول: إن هذا الفن الذي هو أصول الفقه الذي يعصم الإنسان من أن يخوض فيما لا يعلم، أو يقول على الله ما لا يعلم، هذا كما أنه ينبغي له أن يفعل ذلك؛ ينبغي أن يصون كلامه ويتحفظ فيه، ولو أدى به ذلك إلى العي وإلى الحصر فقد جاء عن النبي ﷺ: (العي من الإيمان).

أضرب لكم مثلاً: هذه الأيام استمعت إلى بعضهم، ممن تخرج من بعض الجامعات يقول: بأن حكم قتل المرتد حكم سياسي وليس شرعياً. هذا ربما استهواه ما يدعو إليه الغرب، وما هو معروف هذا الزمن من الحرية الشخصية والحرية الدينية، فلم يجد مخرجاً ومسلماً من حكم الله هذا إلا أن يقول: بأنه حكم سياسي.

ورأيت بعضهم يقول: هناك أغلوطة عد بعض المسلمين أن آية السيف نسخت مائة وعشرين آية. هذه الكلمة في هذا الوقت لسنا محتاجين إليها، لو كان المسلمون أقوى قائلين بالجهاد الذي فرض كفاية جهاد الطلب وجهاد الدعوة وقيلت هذه الكلمة لكان لها وجه، أما وأن المسلمين يغزون في عقر ديارهم، تحت ذرائع مختلفة، وتحت تبريرات متفاوتة، فما الداعي إلى قول هذه الكلمة؟

استمعت إلى بعضهم يقول: بأن العالم اليوم ليس فيه دار حرب ولا غيرها. وأتم تعلمون إذا نفيت دار الحرب قد يلزم منها نفي دار الإسلام من غير أن يشعر، إنما الدار هي دار الإنسانية، ولا أحسب أن هناك [جناً] وشياطين يسكنون معنا ونسألكم ونعاشيهم ونراهم، هم موجودون، والدار دار الإنسانية منذ أنزل الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض وأخرجه من الجنة فهي دار إنسانية، فانظروا إلى الكلمات المائعة من أناس لا ينضبون بالشعر.

قرأت لامرأة كلاماً في جريدة تقول فيه: بأن المسلمين لكي يقووا ويعرفوا عالم اليوم ويعيشوا وينتظم أمرهم ينبغي أن يشتغلوا بالفلسفة. يعني البقية الباقية [تذهب]؛ لا يبقى دين.

شيء آخر قرأته تقارن هذه المرأة -وهي ممن اشتغل بالعلم الشرعي- في مقال بين أنكلما مركل (Angela Merkel) وزرقاء اليمامة، وهي أن هذه المرأة رئيسة ألمانيا عندما ذهب المهاجرون من أرض سوريا استقبلتهم، هذا وقع في ذهني -واسمحوا لي إن عرجت بكم على الواقع-، هي رئيسة دولة لا تتدخل في شؤونهم، عندما قررت استقبال المهجّرين والمشرّدين السوريين وغيرهم وقع في ذهني أنها إنما فعلت ذلك لتخدم بلدها لا لمصلحة الناس؛ لأن ألمانيا نسبة الزيادة فيها ضعيفة أو متوقّفة بحيث ربما غلبت نسبة الوفيات نسبة الزيادة؛ فهي بحاجة إلى من يخدم بلادها: اليد العاملة الرخيصة ففعلت ذلك، ولكن ما أدنى بي ذلك إلى أن أمتدحها وأرفع من شأنها، الناس يبحثون عن مصالحهم، ثم قرأت مقالا لهذه المرأة تقارن فيه بين زرقاء اليمامة قيل: إنها ترى من بعد ثلاثة أيام، وهي صاحبة القصة:

قالت ألا كَيْتَمَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا

إِلَى حَمَامَتِنَا وَنَصْفُهُ فَقَدِ

فقارنتها بها وامتدحتها، وهذا الذي حصل من هذه المرأة جعلني أربط بينه وبين شخص آخر توفي رحمه الله تبارك وتعالى منذ نحو أربعين عاماً وهو ممن ارتبط بالشريعة وكتب في شؤون الدعوة كتباً كثيرة أيضاً قال عن بعض النساء اللاتي كنّ يحكمن بلدانهم وأذكر من هن ماركريت تاتشر (Margaret Thatcher) رئيسة وزراء بريطانيا، باندرانايا (Bandaranaike) التي كانت في [سيريلانكا]، وكونولداير (Golda Meir) التي كانت تحكم دويلة اليهود، عندما رأى هؤلاء النسوة قد حكموا وقادوا بلدانهم إلى نصر، كما قادت ماركريت تاتشر (Margaret Thatcher) في ماليفنس (las malvinas) مع الأرجنتين انبهر، وأذكر أنني كنت في ملتقى من ملتقيات الفكر الإسلامي فقام إلى المنصة وقال: إنكم اعتمدتم على منع المرأة من الحكم اعتماداً على حديث ضعيف. وأذكر أنه كان في غرفتي كتاب ابن تيمية رحمه الله تعالى (اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم) سبحان الله عندما عدت إلى الغرفة فتحت الكتاب فإذا الصفحة التي فتحتها وأنا غاضب عثرت على حديث أبي بكر الذي فيه: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة).

أمثلة كثيرة، منذ أسبوع استمعت إلى خطيب كان قد سجل كلمة إثر الأحداث التي ضربت العالم العربي ابتداءً من تونس ثم مصر ثم سوريا وليبيا، استمعت إلى كلمة له وتعجبت منها لأن للرجل شأنًا، يرد على الذين كانوا ينكرون عليه موقفه؛ قال: إن كانت هذه فتنة فاللهم اجعلني من المفتونين!! كيف يعلق المسلم العالم بالخصوص فتنته على شيء أقصى أحواله أن يكون مختلفاً فيه، الفتنة التي كانت في مصر.

هذه كلها أمثلة -والأمثلة عندي كثيرة- تنبئ -وهو أن المفروض العالم بالشرع يكون متحفظاً، يخشى الله تبارك وتعالى، يتورع، من عز عليه دينه تورع، ومن هان عليه دينه تبرع.

هذا العلم وهذا الفن الذي وفق الله المسلمين إليه كان ينبغي ولا سيما للذين اشتغلوا به أولاً أنهم إذا تعاملوا مع أدلة الشرع أن يتعاملوا معها بمقتضاه، مراعين قواعده، وإذا تكلموا فينبغي لهم أن يراعوا في كلامهم الحق، ولا يتوطوا فيما لا ينبغي أن يخوضوا فيه، لعلني قد أطلت عليكم فاعذروني، وأكتفي بهذا.

صلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

لقاء مع الشيخ

بن حنفية العابدين

حفظه الله تعالى

في المدينة النبوية

ليلة السبت ٢٠ ربيع الثاني ١٤٣٧

النسخة الإلكترونية الأولى



الشيخ لم يراجع التفريغ